العصر المغولي

(من سنة ٦٥٦–٩٢٣هـ)

فذلكة تاريخية

يبدأ هذا العصر بسقوط بغداد في قبضة المغول على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ، وينتهي بدخول العثمانيين مصر على يد السلطان سليم الفاتح سنة ٩٢٣هـ، وكان العالم الإسلامي في أثنائه أكثره في سيادة المغول سلالة جنكيزخان، أو هو انقسم إلى ثلاثة أقسام بين المغول والأتراك والعرب: امتدت سلطة المغول فيه من حدود الهند شرقًا إلى حدود سوريا غربًا تتخللها سيادة الفرس والترك فترة قصيرة في فارس والعراق، وحكم الترك من حدود سوريا شرقًا إلى آخر حدود مصر غربًا، وساد العرب أو البربر في ما وراء ذلك غربًا إلى شواطئ الأتلانتيكي وفي اليمن.

كانت مصر والشام في حوزة السلاطين المماليك من سنة ٦٤٨ إلى ٩٢٣هـ وهم أتراك وشراكسة، وكانت آسيا الصغرى في حوزة السلاجقة ثم أخذها العثمانيون، وكلاهما من الترك، وكانت العراق وفارس في سلطة الدولة الالخانية وهي مغولية، ثم صارت فارس إلى الدولة التيمورية وهي مغولية أيضًا، وإنما تخلل ذلك فترات صارت الأمور فيها إلى دولتين فارسيتين (الجلايرية والمظفرية)، وأخريين تركيتين (القراقيونلية والأقاقيونلية)، وكانت تركستان وأفغانستان في قبضة الشغطائية ثم صارتا إلى التيمورية وكلتاهما مغولية.

تلك هي معظم الممالك الإسلامية في ذلك العصر ليس فيها دولة عربية، وإنما انحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب، أما اليمن فكانت إمارات صغيرة في زبيد وصنعاء وعدن، وأما المغرب فتولته دول صغرى في تونس والجزائر ومراكش وغرناطة بعضها عرب وبعضها بربر، وأما الهند فلم يفتحها المغول إلا بعد ذهاب هذا العصر، وفي أواخر هذا العصر خرج المسلمون من إسبانيا بفرار أبي عبد الله محمد بن علي صاحب غرناطة سنة ٨٩٧هـ آخر ملوك المسلمين في الأندلس.

شكل ١: أبو عبد الله آخر ملوك المسلمين في الأندلس كما صوره الإسبان.

فاكتساح المغول للمملكة الإسلامية ذهب ببقية العنصر العربي، وهدد آداب اللغة العربية بما أتاه أولئك الأقوام في أثناء حروبهم من التخريب والتحريق؛ لأنهم كانوا إذا فتحوا بلدًا قتلوا أهله ونهبوا ما فيه وأحرقوا ما لا يستطيعون حمله وهدموا المنازل، فكم

أحرقوا من المكاتب وقتلوا من العلماء، كما فعلوا في بخارا على عهد جنكيزخان وبغداد على يد هولاكو. وقِس عليه سائر فتوحهم على يد تيمورلنك وغيره.

ويقال بالإجمال: إن العالم الإسلامي مرت عليه ثلاثة قرون ليس فيه دولة عربية تستحق الذكر ولم يحكم العرب منه عشر معشاره، فلو ذهبت اللغة العربية في أثنائها وأمحت آدابها لم يكن ذلك غريبًا، لكنها ظلت حية ونبغ فيها الشعراء والأدباء والمؤلفون في كل فن، والسبب في ذلك أنها كانت لغة السياسة في معظم تلك الدول، ولغة الدين والعلم فيها كلها تقريبًا، حتى المغول الذين قاموا للإجهاز على العرب فإن سعيهم في سبيل العلم كان أكثره عربيًّا وأكثر ما ألفه علماؤهم ألفوه في اللغة العربية.

على أن الفضل الأكبر في بقاء آداب اللغة العربية في ذلك العصر يرجع إلى مصر والشام، وهما في حوزة السلاطين المماليك ومن بقي من الملوك الأيوبيين، فقد كانتا الملجأ الوحيد لأبناء هذا اللسان في فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق، وكانتا مملكة واحدة عاصمتها مصر القاهرة ولغة حكومتها عربية، فنبغ فيهما معظم شعراء العصر المغولي وأدبائه وأطبائه وسائر رجال العلم فيه كما ستراه في مكانه.

مميزات هذا العصر

أولًا: «مراكز العلم» انتقلت مراكز العلم والأدب فيه من بغداد وبخارا ونيسابور والري وقرطبة وإشبيلية وغيرها من مدائن العلم في العصور العباسية إلى القاهرة والإسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق وحمص وحلب وحماه وغيرها من مدائن مصر والشام، واشتهرت مدن أخرى بمن نبغ فيها من الأدباء في الهند بظل سلاطين دهلي، وفي آسيا الصغرى في عهد السلاجقة والعثمانيين، وفي إفريقية تحت سيادة البربر، فكثر في أسماء الشعراء والأدباء والعلماء في هذا العصر ألقاب الدمشقي والحلبي والقاهري والفيومي والإسكندري والمقدسي والحموي والسيوطي والحمصي والتونسي والغبريني واللواتي والكليكوتي والباكوي والبروسوي وغيرهم، على أن القاهرة كانت ملجأ أدباء اللغة العربية وعلمائها يفدون عليها من الشرق والغرب، كانت عاصمة العالم العربي ولا تزال.

ثانيًا : «نصراء الأدب» ذهب عشاق الأدب والشعر من الأمراء والوزراء والخلفاء وغيرهم من رجال السلطة الذين كانوا يطلبون العلم، ويشتغلون به ويلتذون بسماع الشعر وينظمونه، وأصبح الملك إنما يراد به القهر والتغلب، وبعد أن كان الشاعر أو الأديب

تعلو منزلته عند الأمير أو الخليفة أو السلطان بالبيت الواحد أو الحكاية الواحدة انصرف هَمُّ الملوك المغول إلى تدوين حسابات المملكة، وضبط الخرج والدخل وتدريب الجند، وإنما اهتموا من العلوم بالطب لحفظ الأبدان والأمزجة والنجوم لاختيار الأوقات، أما السلاطين الأتراك بمصر فمع رغبتهم في تلك العلوم اشتهر غير واحد منهم بحب العلم وتنشيط أهله، فألفوا لهم الكتب في التاريخ والأدب، وسترى في مؤلفات هذا العصر طائفة من أهم الكتب التاريخية والموسوعات الكبرى، ألفت لبعض أولئك السلاطين أو وزرائهم أو أمرائهم أو أولادهم أو بتنشيطهم. وهذا كان شأن الملوك الأيوبيين في الشام وما بين النهرين.

ثالثًا: «علوم جديدة وألقاب التفخيم» نضج علم العمران وفلسفة التاريخ بمقدمة ابن خلدون وهي أول كتاب في هذا الموضوع، وقد صرح ابن خلدون في آخر مقدمته أنه مستنبط هذا البحث وسماه «طبيعة العمران وما يعرض فيه»، وهذا قوله: «وقد كدنا نخرج عن الغرض وعزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه، وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية، ولعل ما يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه. والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئًا فشيئًا إلى أن يكمل والله يعلم وأنتم لا تعلمون» وسنعود إلى ذلك.

رابعًا: أتقنت في هذا العصر العلوم السياسية والإدارية والحربية ووضعت فيها الكتب وضبطت قوانينها ونظاماتها تحت سلطة المماليك.

خامسًا: ظهر الانتقاد التاريخي وسنفرد له فصلًا خاصًّا.

سادسًا: كثرت ألقاب التفخيم في المخاطبات وفي تراجم العلماء والوجهاء وزاد التسجيع والتطويل في الترسل والتنميق في العبارة، وشاع التسجيع في أسماء المؤلفات، وكان قد ظهر شيء من ذلك في العصر الماضي فتكاثر الآن، وزاد في العصر الآتي.

سابعًا: «المكاتب والكتب» قلت المكاتب الكبرى لذهاب أكثرها حرقًا وغرقًا في أثناء الفتن أو في الفتوح على أيدي المغول في الشرق والإسبان في الغرب، وكان إحراق الكتب قد بدأ في المملكة الإسلامية قبل ذلك بسبب التنازع بين الفرق الإسلامية، فكل فرقة تحاول إحراق كتب الأخرى، كإحراق السلطان محمود الغزنوي لكتب المعتزلة، وناهيك بما

أحرق من كتب العلماء المتهمين بالزندقة والفلسفة وهي كثيرة، ولعل بينها ما ليس مثله بين ما بقي. أما التتر فبالغوا في الإحراق والتخريب فأحرق جنكيزخان من المكاتب في بخارا ونيسابور وغيرها من مدائن العلم في فارس ما لا يدرك إحصاؤه ولم يرد ذكره مفصلًا؛ لأنه جاء تابعًا لما أتاه ذلك الطاغية من الهدم والتخريب، أما هولاكو فقد ذكر التاريخ إتلافه كتب العلم في بغداد وإن لم يعين مقدارها تمامًا.

وكذلك في الأندلس فإن الإسبانيين كانوا كلما فتحوا بلدًا أخرجوا العرب منه وأحرقوا كتبهم على جاري عادة رجال الفتح في تلك الأيام، وآخر مكتبة أحرقها الإفرنج من كتب العرب مكتبة غرناطة على يد الكردينال زيمنس في آخر القرن التاسع للهجرة كان فيها ٨٠٠٠٠ مجلد على أقل تقدير؛ فأمر بإحراقها لأنها تحتوي على كتب تخالف الأناجيل. وطافوا في المدينة فأخذوا ما كان في أيدي المسلمين من الكتب وأحرقوها، وأصدروا أمرًا بتحريم اللغة العربية على غير الكهنة، فلم يبقَ من كتبها إلا القليل. أما الكتب العربية في مكتبة الأسكوريال فأصلها أن سفينتين إسبانيتين غزتا في البحر المتوسط ثلاث سفن تحمل كتبًا عربية لمولاي زيدان صاحب مراكش في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة، فقبضوا عليها وغنموا ما فيها وحملوا تلك الكتب إلى إسبانيا ووضعوها في الأسكوريال وذهب جانب منها بحريق أصاب تلك المكتبة.

وقد شعر علماء العصر المغولي بنقص الكتب في أيامهم، فقال السيوطي — بعد ذكر حكاية الصاحب بن عباد لما دعي للذهاب إلى بعض الملوك فاعتذر بمشقة الانتقال؛ لأنه يحتاج إلى ستين جملًا ينقل عليها كتب اللغة التي كانت عنده —: «وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة بين التتر وغيرهم، بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد»[١] — وهذا غلو من السيوطي — لكنه يدل على مقدار شعور العلماء بضياع الكتب بالفتن.

على أن لضياع الكتب أسبابًا غير الفتن والحروب؛ إذ تبلى أوراقها من نفسها أو يمحى حبرها، ويعجز صاحبها عن استنساخها لغلاء النفقة. وتحولت العناية في جمع الكتب إلى الأفراد من العلماء أو عشاق الكتب، مثل ناصر الدين العسقلاني صاحب الإنشاء بمصر توفي سنة ٧٣٣، فإنه خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتبًا نفيسة، ومكتبة القفطي التي تقدم ذكرها، وصارت المكاتب أكثرها في المساجد والمدارس.

شكل ٢: الأسكوريال.

ثامنًا: «المدارس والموسوعات» تكاثرت المدارس في مصر والشام على الخصوص حتى صارت تعد بالمئات وأهمها في القاهرة ودمشق، وأول من أنشأ المدارس في الشام السلطان نور الدين زنكي، واقتدى به من جاء بعده من الملوك والسلاطين، واختلفت المدارس عندهم حسب مذاهبها وأغراضها للتفسير أو الحديث أو الفقه للشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنبلية أو الطب أو الفلسفة أو الرياضيات، وتخرج في هذه المدارس طائفة كبيرة من العلماء وقس على ذلك مدارس حلب وحمص والقدس وغيرها. أما مصر فتعددت فيها المدارس على اختلاف أغراضها كما فصل ذلك المقريزي والسيوطي، وأشهرها بل أشهر المدارس الإسلامية في العالم كله مدرسة الأزهر بالقاهرة، وهي أقدمها يرجع تاريخها إلى أواسط القرن الرابع للهجرة.

تاسعًا: تكاثرت في هذا العصر الموسوعات والمجاميع، وتعدد المكثرون من درس المواضيع المختلفة، واستكثروا من المعاجم في أكثر مؤلفاتهم حتى يصح أن يسمى عصر الموسوعات أو المجاميع.

عاشرًا: «تحويل العلوم» انصرف أصحاب القرائح عن الاشتغال في الفلسفة والفلك والرياضيات إلى الأبحاث الدينية، ولعل السبب في ذلك كثرة ما تولى الناس من الإحن

فالتجأوا إلى الدين أعظم تعزية لهم وأسهلها، فحولوا أكثر تلك العلوم إما إلى خدمة الدين أو إلى الخرافات. فعلم الفلك صار إلى التوقيت في المساجد، واستغرق أصحاب الكيمياء في تحويل المعادن إلى ذهب، وصار علم النجوم إلى النجامة وضرب الرمل وأمثاله من الشعوذات وكثرت المؤلفات في هذه المواضيع.

على أن الهمم انصرفت إلى حل العويص من المسائل الرياضية، مما يفتقر إلى استغراق في التفكير كقسمة الدائرة إلى سبعة أقسام أو رسم المسبع في دائرة، وقد تكاثر هذا على الخصوص في العصر الثالث.

فلنبحث في علوم هذا العصر كما فعلنا في علوم الأعصر الماضية فنقول:

هوامش

(١) المزهر: ٤٩ ج١.